مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 18 / العـدد 01 / مارس 2024 / ص ص 53 - 68
Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

الانتكاسَة الروحيّة للحضارة الغربيَّة، قراءة في أزمة العالم عند روني غينون

The spiritual setback of Western civilization, a reading of the world crisis By René Guénon.

أمين طالبي [1] ، اليزيد بوعروري [2]
1 مخبر المجتمع الجزائري المعاصر - جامعة سطيف 2 (الجزائر) ، am.talbi@univ-setif2.dz
2 مخبر المجتمع الجزائري المعاصر - جامعة سطيف 2 (الجزائر) ، depar.philo.setif2@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/05/29 تاريخ القبول: 2023/10/24 تاريخ النشر: 2024/03/31

ملخص:
تروم هذه الورَقَة البحثيَّة إلى مُحاولة تبيان تمظهُرات القُصُور الرُّوحي الذي سيطر على واقع الحضارَة الغربيَّة من حيث هي أنمُوذج للتَّقدّم والتَّطور في العالم الحديث، عند المستشرق الفرنسي المسلم روني غينون، وقد تعدّدت الدّراسات وتبايَنت حول تشخيص الأزمَة التي يقع فيها الغرب. ونحن كذلك نحاول، على مدار هذه الدّراسَة، أن نوضح مَعَالِم الانحراف الروحي كجانب من جوَانب الأزمات العديدَة التي تفشَّت داخل نسق الحداثَة، أو الحضَارَة الغربيَّة المعاصرة بمفهُومها الواسع، فليس ثمَّة خلاف أنَّ حضارة الغرب سُجِنت، وسَجَنت أهلها ضمن أضلُع الماديَّة القاتلَة، وأوثان الشَّخصانيَّة الوهميَّة، وآفاق الفردانيَّة المغرورَة. وهي بهذا تفصل نفسها عن الإشادَة بأصالَة الشَّرائع الإلهيَّة، والمبادئ العرفانيَّة التي ساهمت -بهذا القدر أو ذاك- في قيام الحضارَات. لهذا، ظهرَت الحدَاثَة شاذَّة مَبتُورَة من كلّ تَرَقّ روحي وبمعزلٍ عن كلّ وحي ربَّاني. و، من ثَمَّ، فلا أمل في توازُن حضارة الغرب من الخواء الروحي، إلاَّ بالاقتراب من التعاليم العرفانيَّة التي لا تزال حيَّة -بهذا القدر أو ذاك- في الشَّرق.
كلمات مفتاحية: روني غينون، الحضارة الغربية، التَّقدّم، الماديَّة، الشُّذوذ الروحي.

ABSTRACT:
This research paper aims to show the manifestations of spiritual deficiency that controlled the reality of the western civilization, since it is a paradigm for progress and development in the modern world, according to the French muslim orientaliste René Guénon. There have been several and different studies about the diagnosis of crisis in which the west is falling into, and so are we trying, over the course of this study, to clarify features of the spiritual deviation as a side among the various sides of multiple crisis that have spread inside the mode of modernity or the western contemporary civilization in its wide concept. There's no disagreement that the civilization of the west has been prisoned with her followers inside the walls of deadly materialism, delusional idols of personalism and the horizons of egoistic individuality. By that, it separates itself from taking credit of the originality of divine canons and gnostic principles that contributed, in a way or another, to raising civilizations; therefore, Therefore, there's no hope in balancing the civilization of the west from any spiritual emptiness unless it comes closer to gnostic features that are still alive, in a way or another, in the east.
Keywords: René Guénon, western civilization, progress, materialism, spiritual anomaly.

1- مقدمة:

من المعلُوم أنَّ الحضَارَة الغربيَة -بما فيها الحدَاثَة وتمظهُراتها- تفرض نفسها اليوم على أنَّها أنموذجًا للتَّقدّم والتَّطوُّر على كافَّة المستويات، كالسيّاسة، والاقتصاد، والتَّطوّر التّقني. ومن ثَمَّ، فهي، أي الحضارَة الغربيَّة، رؤية إلى العَالم تشَكِّل تَصوُّر الإنسان الحداثي للكَون. من هنَا، تظهر الحضارة الغربيَّة وكأنَّها المعجِزَة التي لطالمَا تطلَّع إليهَا الغَرب، والتي جَعلت منه "حضارة" دون مُنازع.

- المؤلف المرسل: أمين طالبي

doi: 10.34118/ssj.v18i1.3824
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/3824
ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

هَذَا التَّصوُّر الحَداثِي الذي ظَهر حَصريًّا في الغَرب منذ بزوغ فجر فلسَفة الأنوار من حيث كونهَا إسقاط للهَالَة السّحريَّة، وتحطيم للقَدَاسَة التي استَولَت على العَالم في لَحظَة تاريخيَّة لطالما وُصِفت بالقرون المُظلمَة، كانت فيهَا أوروبَا تَقبع في ظُلمَات الجَهل والهَوَان. ليبدأ فجر جديد قائمٌ أسَاسًا عَلى التَّقدُّم بما هُو نزوعٌ نَحوَ التَّطوُّر؛ والحُريَّة، من حيث هي جُرأة على المُسَاءَلة النَّاقِدَة؛ والعَقلانيَّة، باعتبارهَا إرادَة عَلى استعمَال مبادئ العَقل، و، من ثمَّ، جعل العقلانيّة رؤية إلى العَالم. هذه الرؤية و/أو التَّصوّر التي لَطالما استوطن الحياة الغربيَّة وجعل من واقعهَا حَضارة كَونيَّة. لكن، هذه الحضارة بكلّ منتجاتها أضحَت مأزومَة وهَالكَة، فبقدرِ ما سَاهمت قيَم الحدَاثَة في تَكريس التَّطور وفرض التَّقدّم وتوعيَّة الإنسَان؛ سَاهمت أيضًا، على نَحوٍ عَكسِي، في انحطاط الإنسَان الغربي، وظهرت تنبؤات بسقوط الحضارة الغربيَّة جَرَّاء توغُّلها في الماديَّة؛ وتقديسها لعقيدَة التَّقدّم، وسيطرة وهم الفردانيّة، ومن ثمَّ، التقليل من كل ما هو روحي عرفاني.

هذه النَّزعَة الماديَّة، صاحَبَهَا ما يسمَّى بالانتكاسَة الروحيَّة، والتي جَعلت الحضارة الغربيَّة تحمل في رحمها بذور فنائِهَا، بل وجَعلت البعض يُشخِّص أزمة على مستوى نسق الحداثَة، و، من ثمَّ، يُشكِّك في قدرة الحضارة الغربيَّة على تجاوز هذه الأزمة، بل وظهرت أصوات غربيَّة تندّد بنهاية العالم! ولعلَّ أبرز من شَخصَّ أزمة الغرب مُبكِّرًا هو المستشرق الفرنسي روني غينون، مخالفًا حقل دراسته عَكسيًّا، فينتقد الغرب وتمظهراته الحداثيَّة نقدا موضُوعيًّا وروحيًّا من داخل الغَرب.

ولعلَّ ما يجعل روني غينون مفكِّرًا هدَّامًا وفيلسوفًا ناقِدًا، هو تحليله الموضوعي وتشخيصه القيِّم للحضارة الغربيَّة في أوجّ عطائِهَا، وذلكَ بسب انتهاكها لكل مَصدر روحي وتقديسها لكل ما هو مادي فرداني، بل أضحت هذه الأخيرة -أي الفردانيّة- الأنموذَج الذي بنى عليه الغرب حضارته، أدّى ذلك إلى تبلوُر توعُكات اجتماعيَّة ونفسيّة والسّبب في ذلك هو التَّقليل من كل ما هو روحِي. لهذا، بات الغرب اليوم -حسب روني غينون- مُطالب بمراجعة مرتكزات حضارته الماديَّة على نَحوٍ يسمح له بالانتباه أكثر للقيم الروحيَّة الفاعلة في تشيِّيد الحضارات. والأكثر من هذا كله، أنَّ إنقاذ الغرب من هذا الخواء الروحي يكون بإعادة بعث القيم الروحيَّة التي لا تزال حيَّة، بهذا القدر أو ذاك، في الشَّرق.

وعليه، ففي هذا الموضوع، قَد لا يَكفي أن نتسَاءَل بقدر ما علينا أن نجرؤ على مساءَلة التَّساؤُل نفسه! عن أزمة الحضارة الغربيَّة وانتكاسَاتها الروحيَّة، و، من ثمَّ، البحث في فكر روني غينون عن ترياقٍ روحي يُنقذ الغرب الحديث من الهلاك الذي بات قَاب قوسين أو أدنَى. فكيف يُشخِّص روني غينون أزمة الحضارة الغربيَّة الماديَّة، ومآلاتها الانحطاطيَّة؟ وما هي أبرز نتائج الانتكاسَة الروحيَّة للحضارة الغربيَّة؟ وهل من علاجٍ يمكن أن ينقذ الغرب من أزمة تصعيده للمادية وتنزيله للروحانيَّة؟

وللإجابَة على هذه التَّساؤلات، استعملنا المنهج التاريخي في البحث عن سيرة الألفاظ ودلالة المفاهيم؛ والمنهج التحليلي في عرض الموضوع استشكالاً واستدلالاً؛ ومناهج أخرى تتطلّبها الدِّراسَة البحثيَّة، ما سيجعلنا، في الأخير، ننتهِي بعرض كامل لأزمة الحضارة الغربية والنِّهاية الوشيكة للعَالم، و، من ثمَّ، محاولة منح الأمل الروحي الذي يرى فيه روني غينون سبيلا لإنقاذ الغرب من سقوطه.

أمَّا أهدَاف البَحث فتتمثَّل في معرفَة أزمَة الحضارة الغربيَّة الماديَّة وأنموذجهَا الحداثِي، ومن ثمَّ، التَّعرُّف على التَّجاوُزات الخطيرة التي تفرضهَا هذه الحضارة على الإنسَان الغربي المُتوغِّل في الماديَّة الشّاذَّة، والغارق في الفردانيَّة القاتلَة بعيدًا عن كل خلفيَّة روحيَّة وأصَالَة عِرفانيَّة. وأيضًا، تروم الدراسَة إلى تحليل أراء روني غينون الراميَّة -بعد نقد الغرب نَقدًا روحيًّا- إلى إنقَاذ هَذَا الغرب الحديث من النهاية التي تهدِّده.

2- الحضارة الغربيّة وتجليات الحداثة، نحو مقاربات مفهومية:

ليس ثمة خلاف أنَّ البحث في مثل هذه المواضيع التي تشغل الإنسان كموضوع الحضارة الغربية يكتنفه الكثير من اللّبس والغموض، ولهذا، كان ولا زال الإطار المفاهيمي ضرورة معرفية ومنهجيَّة، ذلك أنَّ المفاهيم من حيث هي مُستودعات كُبرى للمعاني والدَّلالات، كثيرا ما تتجاوز البنية اللَّفظية، وتتخطَّى الجذور اللغويَّة لتعكس المعارف الفكرية والفلسفية التي تُخفيها المفاهيم (نصر، 1994، صفحة 9) لهذا، سنحاول أن نوضِّح المقاربة المفهومية للحضارة والحداثة، باعتبار هذه الأخيرة أحد مرتكزات الحضارة الغربيَّة ككل.

2-1- الحضارة بحث في سيرة المُصطلح ودلالة المفهوم:

عادة ما يحمل مصطلح الحضارة دلالات عدَّة تختلف استعمالاتها باختلاف السِّياق التَّاريخي والفضَاء المعرفي، ونظرًا لأهميَّة المصطلح سنحاول البحث عن أصله وتجلياته المعرفيّة. فكلمة Civilisation ترجع في الحقيقة إلى الأصل اللاّتيني Civites والذي يحمل معنى مدينة، أو Civis بمعنى ساكن المدينة؛ أو الأصل Civilis بمعنى مَدني؛ أو كل ما يتعلَّق بساكِن المدينة. وورد أيضًا، الأصل Citizen الذي يُعرَف به المواطن اليوناني والروماني المتعالي عن البربري. (نصر، 1994، صفحة 33) ظهرت هذه الكلمة في القرن الثَّامن عشر مع المركيز دي ميرابو (1749-1791) D. Mirabeau ونجد الفكر الغربي عمومًا يطابق بين مفهومي الحضارة وَالثَّقافة تطابقا يصل إلى حدِّ التَّرَادُف! كما ذهب إلى ذلك فرناند بروديل: (1902-1985) Fernand Braudel إذ اعتبر أنَّ الثَّقافة والحضارة تشيران معًا إلى المعنى نفسه، وهو الطَّابع الكلِّي للحياة لدى شَعب من الشُّعوب تشمل القيم وطرق التَّفكير، والحضارة عنده، هي فضاءات يرتبط واقعها بموقعها الجغرافي، فكل حضارة تصدر وتتلَّقى التَّأثيرات الثَّقافية من حضارات أخرى؛ فضلا عن اعتبار الحضارة هي مجتمعات، وهذه الأخيرَة تمنحها الحيوية وتدفعها للتَّقدم؛ علاوةً على ذلك، فالحضارة بهذا المعنَى هي عبارة عن ذهنيات جماعية. (سعدي، 2012، صفحة 9)

عمومًا، يمكننا القَول، أنَّ الحضارة، بحسب بروديل، هي استمرارية تاريخية متعلِّقة بعمقِ التَّاريخ، وهو حصيلة لتلك التَّفاعلات الاجتماعية، والاقتصادية، والثَّقافية، مع جعل لفظ الثَّقافة مرادفًا للحضارة!

ومن الضَّروري التَّنبيه، هنا، أنَّ هذا التَّداخل بين مفهومي "الحضارة" و"الثَّقافة" استمرّ في الفكر الغربي حتى القرن التَّاسع عشر، حيث رسمَ المفكرون الألمان حدودًا تفصل بين الحضارة بمُقَوماتها التقنية والمادية؛ وبين الثَّقافة بتجلِّياتِهَا القيمية والفكرية واللُّغوية والدِّينية. فنجدُ -على سبيل المثال لا الحَصر- أوزفالد شبنجلر: (1880-1936) Oswald Spengler، يستعمل كلمة حضارَة للدَّلالة على أنَّ هذه الأخيرة في طريقها للانحطاط متأثِّرًا بالدَّورَات الحضارية في تفسيرِ التاريخ؛ (سعدي، 2012، صفحة 10) أما عن دلالة هذا المصطلح في اللغة العربية، وتحديدا في أوائل القرن التاسع عشر، فقد ظهر اتجاهين في ترجمة هذا المفهوم ولكُلٍ منهُما مُبَرِرٌ وَسَنَدٌ لُغَوي يستند إلَيه؛ اتِّجَاهٌ تَرجَمَ كَلمَة Civilisation إلى اللَّفظ العربي مدينة، وذلك منذ بداية الاتِّصال بالغرب في مطلع القرن التَّاسع عشر، حيث استعمِل لفظ التَّمدُّن للتَّعبيرِ عن مضمون المفهوم الأوروبي؛ (سعدي، 2012، صفحة 42)؛ واتِّجاه آخر ترجمه بـ "حَضَارَة"، وهذا الاتِّجاه كان في منتصف القرن العشرين. واستند هذا الاتِّجاه لذاك التَّقدم المادي والمَعرفي، والفنون الحديثة التي عرفتها أوروبا آنذاك. (سعدي، 2012، صفحة 46) خاصّة وأنَّ الحَضر في اللّغة هو خلاف البَدو، والحاضِر خلاف البَادي (أي المُقيم في البَاديَّة) فيقال فلانٌ مُتحَضِّر وفُلانٌ بدَوي، ومن خلال هذَا يُمكننا القَول أنَّ الحَضَارَة هي الإقامَة في الحَضر أو المدينة. (ابن منظور، 1303، صفحة 272)

وعليه، ومن خلال ترجمة اللَّفظ الأجنبي Civilisation، يظهر بوضُوحٍ أنَّ الاتّجاه الثَّاني أقرب وأدَّق نوعًا مَا، ذلكَ أنَّ الحَضَارة، عادَة، هي مَجمُوعَة ظَواهر اجتمَاعيَّة مُركَّبة ذات طبيعَة قابلَة للتَّناقُل، تَتمّ بسِمَة أخلاقيَّة وجماليّة وفنيّة، بين كلّ

الأفراد. (لالاند، 2001، صفحة 172) أو بالأحرى، وإن صَحَّ التَّعبير، هي ذلك المجمُوع المركَّب، من ظاهرة التَّقدّم العِلمي والتّقني، والرقيّ الفنّي والأدبِي، والازدهار المادِي الذي ينتقل من جِيلٍ إلى جيل في مُجتمعٍ واحِد، أو في عدَّة مُجتمَعات. (بليلطة، 2018، صفحة 85)

من البيّنِ إذًا، ومما سَبق، أنَّ الحضَارة مَفهُومٌ زئبَقِي قد يصعب حَصره. ولهذا، نلاحظ تَعدّد الرؤى في صوغِ مفهومٍ للحضَارة وذلك لتعدّد المدارس الفكريَّة والنَّزعَات الفلسفيَّة، لدرجَة أنَّ بعض الدّراسات تُطابق بين مفهومي الثَّقافة والحَضَارة. ولعلَّ هذا التَّطابق المفهُومي بين الحضَارة والثَّقافَة يجعلنا -واحترامًا للمقتَضَيات المنهجيَّة- نُعرِّف، ولو في بضعةِ أسطُر، مَعنَى الثَّقافَة باعتبارها فاعل من المتفاعلات الحضاريَّة.

لا يخفى أنَّ الثَّقافَة مُلازمَة للحَضَارة، والأبعد من ذلك هي ظاهرة مُلازمة للتَّاريخ والإنسَان، ولعلّه من الضَّروري التَّنويه أنَّ الجذور الأولى لكلمة ثَقافة Culture ترجع إلى الأصل اللاَّتيني Cultuvare والذي يحمل معنَى حرث الأرض وزراعتها، وبهذَا المعنَى استعملهَا شيشرون (106 ق م- 45 ق م) Cicéron أي حرث الأرض وزراعتها، وظلت دلالَة المصطلح على حاله حتَّى عصر النَّهضَة، إذ تحولّت دلالة اللَّفظ إلى المدلول الفنّي والأدبِي تتناول مواضِيعا كالتَّربيَّة والإبداع؛ أمَّا في القرن السَّابع عَشَر أصبحت الثَّقافَة تدلّ على طريق للتَّذوق والفَهم وتزيين المعرفَة. ونجد هُوبز (1588-1679) T. Hobbes-على سبيلِ المثال لا الحَصر- يستعمَل اللَّفظ للدَّلالَة عَلى العمل الذي يبذله الإنسَان لغَايَات ماديَّة أو مَعنويَّة. (معن، 1986، صفحة 312)

من خلال هَذَا، يظهر جليًّا أنَّ الثَّقَافَة ظاهرة مُلازِمَة للحَضَارَة، ويظهر ذلك من خلال ما ذهب إليه عالم الأنثربولوجيا الإنجليزي إدوارد تايلور (1832-1917) Edward Taylor بالقَول أنَّ (الثَّقافة هي ذلك الكُل المشترك الذي يشمل العَارف والمعتقَدَات والفُنُون والقَوَانين والأعراف الثَّقافيَّة، من حيث هي كيان مُتميِّز لجماعة إنسَانيَّة.) (سعدي، 2012، صفحة 20)

2-2- الحداثة، قراءَة في المفهُوم والأبعَاد:

من المعلُوم أنَّ الحَضَارَة الغربيَّة بكلِّ مُنتجَاتهَا تتلَخّص في الحَدَاثَة، هذه الأخيرة باعتبارها حصِيلَة التَّطور الذي شَمَل حَضَارة الغَرب بدءًا من بزوغ شمس الأنوار، والذِي يُمثِّل ركيزة الحَدَاثَة وبذرة قيامها. وليسَ ثمَّة خلافٌ أنَّ الحَداثَة بكلِّ تجليَّاتها تتمثّل حَصريًّا في حَضَارة الغرب على كافة المستويات.

ينبغي دائما في موضوع الحداثَة، أن نفرِّق -على الأقل لغويًا- بين الحداثة والتَّحديث، فـ Moderne مفهوم منقُولٌ من الأصل اللّاتيني Modernus الدَّال على الواقع الجديد، أو الحالي، أو الرَّاهن، كان ظرفًا أم رأيًا، والمشتّق من التَّركيب بين المصّدر -modo الدَّال على عدم التَّراخي؛ وhodiernus الدال على اليومي. ولهذا، نجد المفهوم Le moderne فلسفيا يدلّ على وصف المفكّرين المسيحيين moderni لتميّزهم عن المفكّرين القُدامى من أهل الشّرك اليونان والرومان؛ (النقاري، 2018، صفحة 190) كما يدل أيضًا، على ذاكَ الإنسَان المؤمن بفكرة التَّطوُّر والتَّقدُّم المستندتين إلى التَّجديد الذي ظهر في الفلسفة خاصَّة مع أعمال ديكارت (1596-1650) Descartes، وفي العلم مع جاليليو (1564-1642) Galilée، في حينَ أنَّ المفهوم le modérnisme يشير إلى (ذاكَ الأسلوب الذي يتميَّز به العصر الحالي والراهن والوقتي في أحداث تطوراته وتجديداته.) (النقاري، 2018، صفحة 191)

مما سبق، يظهر جليًا مدى الفرق بين مفهُومي الحديث، والحداثة، باعتبار المفهوم الأول -أي الحديث- يُشير عادَة إلى التميّيز بين المرحلة المسيحيّة في مُقابلِ مرحلَة القُدامى من أهل الشرك والخُرافات؛ أمّا الحداثة، فهي رؤية Vision وأسلُوب يُميّز الحياة الإنسانيّة في أحدث التطّورات على مُختلف الميادين. ويحتلّ موضوع الحداثَة موقعًا فكريًّا بارزًا في عالمنا المعاصر، باعتبارها -بوجهٍ عامّ- وصفٌ لحالة المجتمعات الغربيَّة منذ عصر النهضة Renaissance، ويشمُل التَّرشيد الاقتصادي، والدّيمقراطيّة السياسيّة، والعقلانيّة كنمط للتّفكير في مُقابل التَّفكير الخُرافي والكنَسي الذي كان سائدًا في القرون الوسطى وما قبلَهَا.

ولهذا، نفرّق بينَ الحَدَاثَة والحديث، من حيث أنَّ الأوَّل، أي الحداثَة، هي نمط حضَاري يتعارَضُ حصريًّا مع التَّقاليد ونقصد بالتّقاليد تلكَ المظَاهر التي استوطَنت الغرب قبل عصر الأنوار، معنَى ذلك أنَّ مرحَلة الحدَاثَة تَدعُوا إلى التَّجديد والتَّغيير خاصَّة على مستوى رؤية العالم؛ ولعلَّه من الضَّروري التَّنبيه إلى أنَّ مُصطلح الحداثَة قد استُعمل لأوّل مرة في القرن 19 من طرف الكاتب الفرنسي، وزير الخارجية الأسبق شاتوبريان (1768-1848) Chateaubriand قبل أن يظهَر المصطلح من جديد، بعد عشر سنوات، مع الشَّاعر الفرنسي شارل بودلير (1821-1867) Charles Baudelaire الذي استعمله في الجماليات؛ بينما الحديث و/أو التَّحديث، كمصطلَح، يُعدّ أقدَم ظُهُورًا من الحَدَاثَة، إذ ترجع كلمة حديث إلى القَرن 15 ويهدف إلى التَّميّيز بين الماضِي الروماني والحَاضر الروماني المسيحي. (حمدي، 2012، الصفحات 71-72)

ومن خلال هذا التَّميّيز، يُمكن القَول أنَّ الحدَاثَة هي جُملَة أفكار وقيم تحكمها فكرة التَّنوير التَّقدُّمي والتَّصاعُدي، هذا التفكير الذي يتعارض مع الأسس التّقليديَّة للغرب، تلك الأسس التي كانت تفرضها الكنيسَة. ولما كانت الحدَاثَة تستمدّ روحها من فكرة الأنوار في القرن الثامن عشر، اكتشف فلاسفَة الأنوار أنَّ البشريَّة تستند إلى تطوُّر مرحلي، مؤكّدين أنَّ التَّحرر والانعتاق من الفكر التَّقليدي سيكون نتيجَة لاستعمال العَقل من حيث هو إقرار بالرفض لكلّ حكم مُسبق وكل سُلطانٍ مُهيمن. (المسيري و التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، 2012، صفحة 209)

والحَداثَة، بهذا المعنى، رؤية مناهِضَة للموقف القائم على حفظ الماضي كتقليد مُتَّبَع أو تقاليد مَرعيّة. فيُراد لها -أي الحداثَة- أن تُشير، في آنٍ واحِد، إلى كلٍّ من العَقل كأدَاة قائمَة على ممارسة المُساءَلة النّقديَّة استشكالاً واستدلالاً؛ والحريَّة، كرُشدٍ دون وصَايا وتحررٍ دونَ تبَعيَّة؛ والتَّقدُّم، كديمومَة قائمَة على التَّطوُّر والتَّوُسُع. (الكور، 2013، صفحة 28) لهذا، تفرض الحَداثَة نفسها على أنَّها أنموذَجا لتقدُّم الإنسَانيَّة برمّتها، وهي بذلك تكون قَد حقّقت نجاحات على مختلف الأصعدَة، ويظهر ذلك في هيمنَتها على العالم البشري. (المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، 2013، صفحة 189)

معنَى ذلك أنَّ الحدَاثَة من حيث هي رؤية إلى العالم؛ باتت تفرض نفسَهَا على الإنسَان، بذاكَ القَدَر الذي يَكون الإنسَان جزءًا من هذه الحَدَاثَة، يعيش واقعها ويتشرَّب من نمَاذجَهَا التي تفرضها عليه بهذا القَدر أو ذاك. باعتبارها، أي الحداثة، مَرحَلة جديدة تُبرز، و، من ثمَّ، تفرض نفسها كَحَالة انتقال وتجاوز من الماضي إلى الحاضر. فهي -أي الحَدَاثَة- تتميّز بخاصيَّة الوعي بضرورَة تجاوز تفاسير الماضِي ومفاهيمه، وفي هذا يرى هابرماس (1929) Habermas أنَّ الحدَاثَة مفهُوم يُعبّر عن وعي العَصر، يُحدّد نفسه بعلاقاته بماضِي العُصُور القَديمَة. و، من ثمَّ، يفهَم ذاته من خلال انتقاله من القَدِيم إلى الحَدِيث. (حمدي، 2012، صفحة 73)

ولعلَّه من المفيد الانتبَاه أنَّ الحَدَاثَة ليس مُجرَّد حَدث تعيشُه المجتمعَات المعاصِرَة؛ بقدر ما هي سلسلَة من التَّطوُّرات والتَّراكُمَات التَّاريخيَّة التي أعادَت صَوغ الإنسَان وفقَ الأنمُوذَج الحَدَاثي القَائِم أسَاسًا على ثالوث التَّقدّم والحريَّة والعقلانيَّة. لهذَا، فمن الصُّعُوبَة بمَا كَان تناوُل، أو انتقَاد، الحَدَاثَة بمعزل عن ظُروف تَشكُّلها.

يُعتَقَد عادَةً أنّ الحدَاثَة تبدأ زمنيّا من عصر النَّهضَة Renaissance بعد نزع الهالة السِّحريَّة عن العالم وتحطِيم قُيُود الكَنيسَة، ومن ثَمَّ، تبلور الفكر العَقلي، خَاصَّة وأنَّ الحَدَاثَة باتت تُلخَّص في العقلانيَّة، باعتبارها الأنموذَج المهَيمِن على الحَضَارَة الغربيَّة كَكل، (تورين، 1998، صفحة 30) وذَلكَ من خلالِ ما طَرَحَهُ فرنسيس بيكُون (1561-1626) Francis Bacon في منهجه التّجريبي؛ وروني ديكارت، الذي حَصَر الإدراك العَقلي في الفِكر، فجَعل الذَّات Le Sujet في مُقابل الموضوع l'objet كثنائية حادَّة بين الذَّات العارفَة متمثلة في الإنسان؛ والموضوع المُدرَك متمثِّلاً في الطبيعَة. (ديكارت، 1991، صفحة 82) محاولا جعل الإنسان سيّدًا على الطَّبيعَة ومالكًا لها.

ذلكَ أنَّ العقلانيَّة تمثل البدايات الأولى لتشكُّل الحَدَاثَة، خاصَّة وأنَّ العَقل المُفكِّر في الحضارة الغربيَّة ليسَ سوى وسيلة للتَّأثير على المادَة. و، من ثمَّ، إخضَاعهَا لغايات نفعيَّة عمليَّة. وبهذَا، أضحَت العقلانيَّة بذرة تشكّل الحضارة الغربيَّة. والأدهى والأمر، أنَّ هذا الخضوع التَّام للعقل صاحبه تنكيس وتقليل من التعاليم الروحانيَّة التي كانت مبثوثة في الغرب.

3- الحضارة الغربيَّة، بين تَصعيدٍ للماديَّة وتنكيسٍ للروحانيَّة:

من المعلُومِ أنَّ الحضارة الغربيَّة من حيث هي رؤية إلى العَالَم قائِمَة على السَّيطرَة والهيمنَة باسم العَقل والمادة؛ تُبرز نفسَها في اتّجاه مادِّي بحت منذ عصر النَّهضَة، وهذا التَّطور المادِّي بقدر ما سَاهَم في تبلوُر الحَداثَة؛ ساهم بالمقابل، على نحوٍ مُتناسب، في التدنّي الروحِي لحضارة الغرب، وقَد بلَغَ هذا الانحطاط الرّهيب حدًّا جَعل الغربيين أنفسهُم يجهلون -أو بالأحرَى- يتجاهلون ما يُعرف بالعرفان الخَالص. (غينون، شرق وغرب، 2016، صفحة 55) معنى ذلك أنَّ التَّطوُّر المادِّي المتواصِل والمُتسَارع في الغرب صاحَبَه نُكُوصٌ في العَقلية العرفانيَّة الروحانيَّة. (غينون، رموز العلم المقدّس، 2013، صفحة 7) وليس ذلك سوى نتيجَة لعقيدة التَّقدُّم ووهم الماديَّة وأفق العقلانيّة.

3-1- الحداثَة الغربيَّة بينَ التَّقدُّم والماديَّة:

لا يَخفَى على كلّ ذي بالٍ أنَّ الحَضَارة الغربيَّة تظهَر جليًّا عبر الحَدَاثَة، هذه الأخيرة القائِمَة أسَاسًا على العَقلانيَّة كَخُروجٍ و/أو تمرُّدٍ عن الطَّابِع السِّحري والقداسَة التي تحكم العالم. فتجعَل من نفسها -أي الحَضَارة الغربيّة- أنموذجا مثاليا ومَنظومَة حَضَاريَّة متكاملة الأركَان، بَيْدَ أنَّ الأنموذَج المهيمن على هذه الحَضارة، بما في ذلك الحَدَاثَة، هو الأنموذَج المادِّي، كإيمان راسِخ بأنَّ المادَّة هي الأصل والمحرِّك الأساسي للكَون، وهذَا لا يعني، على الإطلاق، أنَّه الأنموذَج الوحيد، بل إنَّ هذَا الأنموذَج المادِّي توغَّل في أغلب مناحِي الحياة الغربيّة. (المسيري و التريكي، 2012، صفحة 16) لدرجة أنَّ الماديَّة الغربيَّة أضحَت الخارطَة المعرفيَّة التي يُدرِك الإنسَان العَالم من خلالِهَا، أو بعبارة أصحّ، تحولت الماديَّة في ظلّ حضَارَة الغرب إلى رؤية كونية تَصنَعُ الإنسَان الغربي الحَداثي. وهذه الرؤية الشَّاملة للكَون تحاول أن تجيبَ عَن معظم الأسئلة التي يطرحها الغرب. (المسيري و التريكي، 2012، صفحة 18)

معنَى ذلك أنَّ حضَارة الغرب قَد تَطوَّرت حَصريًّا في هَذَا الاتّجاه المادِّي، ولعلّ التَّأمُّل المتواصِل لحضَارَة الغرب يجعَل المُتأمِّل يكتشف أنَّ الحضارة الغربيَّة حضارة مادَّة. ولعلَّه من الضَّروري التّنبيه، هنا، أنَّ الماديَّة قَد استُعمِلَت في القَرن الثَّامن عَشَر من طَرف الفيلسوف الانجليزي الإنجليزي جورج باركلي (1685-1753) George Berkeley والذي وظَّفهَا للدَّلالَة على كل نظريَّة تسلِّم بالوجُود الحقيقي للمادَّة، بل أخذَت الكلمَة مَعنًا أضيَق، وهو لا وَجَود لشيءٍ غيرَ المادَّة. والأبعد من ذلك، أنَّ هذا المفهُوم هو نتاج للعقل الحَديث، يتوافَق مع جزء من النزعات الخاصَّة بهذا العَقل. (غينون، أزمة العالم الحديث، 2016، صفحة 109)

وينبغي التَّوضِيح، أنَّ مفهُوم الأجنبي Le matérialisme يُشير إلى التَّوجُّه الفلسفي الذي لا يرى الموجود إلاَّ وهو مادَّة Matière، بما في ذلك الموجُود الإلهي والنَّفسي. من هنا، كان هذا التَّوجُّه "توجُّهًا مُتجسِّدًا" من جهة؛ وتوجُّهًا مُجَسّمًا من جهة أخرى. بيْدَ أنَّ الكائنَات في النِّهاية ليست سوى مجرّد وَحدَات طبيعيَّة تخضع للقوانين الفيزيائيَّة والكيميائيَّة. (النقاري، 2018، صفحة 181) فالماديَّة، إذًا، فضلاً عن كَونهَا مَذهَب يردّ الظَّوَاهِر المتعدِّدة للأشيَاء إلى أسَاسٍ واحِد هو المادَّة؛ هي أيضًا، رؤيَة إلى العَالم. (بليلطة، 2018، صفحة 192) لهذا، نجد ديكارت قَد ردَّ الإدراك الخارجي إلى الفكر، وأسند إليه دورا أساسيّا هو جَعل ما فوق الطبيعَة (الميتافيزيقا) أساسًا لعلوم الطّبيعَة (الفيزيقا) والتي نهايتها الأساسية هو إنشاء العلوم التَّطبيقيَّة والميكانيكَا ودراسَة قوانينها، والطِّب والأخلاق، في نهايَة المطاف، ليسَت سوى غايَة تنتَهِي إليهَا المعرفَة الإنسَانيَّة حسبَ التَّصوُّر الديكارتي. وبهذَا، كانت التَّوجُّهَات التي أعلن عنهَا ديكارت هي- في الحقيقَة- ما يُميّز التَّطوُّر الحَاصِل للعِلم الحَدِيث. (غينون، 2016، صفحة 56)

لهذا، ومما سَبَق، يُمكن القَول أنَّ العالَم الحَديث، بما في ذَلك العالم المعَاصِر، قَد توغَّل في الاتّجَاه المادِّي و/أو الماديَّة التِي بدأت معالمهَا مع التَّخَلِّي عن التَّفسيرات الكَنسيَّة للعَالَم. و، من ثمَّ، جَعل المادَّة كنمُوذَج معرفِي لفهم وتفسير ظواهِر العَالم، والنَّموذَج المعرفِي، هو صُورَة عقليَّة للعَالم تُشكِّل ما يُمكن تسميته بـ"خارطَة معرفيَّة" ينظُر، أو بالأحرى، يتوجَّه الإنسَان من خلالها للواقِع، وهذه العَمليَّة هي نتيجَة تَجريد عَقلي مُركَّب وتُسمَّى بـ"الإدراك العقلي" لأنَّ الإنسَان يُدرك العالم من خلالها؛ وتَسمِيَتُهَا بـ"النَّماذج المعرفيَّة" لأنَّها تحتَوِي على بُعد معرفِي، (المسيري، 2001، صفحة 15) فلكل نموذَج معاييره الدّاخليَّة التي تتكوَّن من معتقَدَات وفروض وَمُسلَّمَات، وإجابات عن أسئلَة كَونيَّة وكليَّة. (المسيري، 2001، صفحة 20)

يمكن القول، إذًا، أنَّ الحَضارة الغربيَّة حَضَارَة مادّة، وهذَا يُحيل في نهايَة المَطَاف إلى وجُود نمَط سُلُوكِي وأخلاقِي يُهيمن على حضارَة الغرب، وهو نمط التَّقدُّم المادِّي، تمَامًا كمَا كانت، ولا زَالت، الحَضَارات الشَّرقيَّة القَديمَة تَرى العَالَم بواسطَة نموذَج مَعرفِي روحَاني غَيبِي مَختلف عن النَموذَج الغربي المادِّي. مَعنَى ذَلكَ أنَّ لكل حَضَارَة إنسَانيّة إلاَّ ولَهَا نموذَج إدراكِي لِفَهمِ، و، من ثَمَّ، تَفسِير العَالم.

وهكذَا، فالحَضارة الغربيَّة تَرى أنَّ المادَّة أزليَّة وهِي أصل الموجُودات، وأنَّ الحَوادِث والطَّوارئ ليست سِوى نتيجَة للحَرَكة والطَّاقَة الكامنة في المادَّة، وهي، أي المادَّة، خالقَة أزليَّة في تَفسير ذاتها وخالقَة في تطوُّرها لا تَحتاج إلى خالق يخلقها، (فقيه، 2002، صفحة 54) تمامًا كما يؤكِّد القانُون العلمي الذي طوَّره لافوازيه (1743-1797) Lavoisier والذي مفادّه أنَّ المادَّة لا تحدث من العَدَم، كما أنَّها لا تَنعَدِم. (الصادقِي، 1987، صفحة 59) وهَذَا قد يُحيلنا إلى الفكر اليوناني القَديم الذي انتهى فيه الطَّبيعيون الأوائل، رواد المدرسَة الطَّبيعيَّة، إلى القَول بأنَّ أصل الكَون هو "المادَّة" مع التَّفاوُت في نوع هذه المادَّة، التي يرجع لهَا نُشوء الكَون.

من هنا، يجعل الغرب نفسه الوريث الشَّرعِي للحَضَارَة اليونانيَّة والرومانيَّة القَدِيمَة، و، من ثَمَّ، الإنكَار التَّامّ والتَّجاهل لما سِواهَا من الحَضَارات، هَذَا بالتَّحدِيد ما يُسمِّيه المستشرق الفرنسي روني غينون (1886-1951) René Guénon بـ "التَّحيُّز الكلاسيكي المُسبَق"، وهي حسب باسكال (1623-1662) B. Pascal لحظَة إنسَانيَّة ابتدأت بالإغريق واستَمرَّت مع الرومان، قَبلَ أن تُخيِّم فترة سُباتٍ خلال العصر الوسيط، لتنطلق النَّهضَة الأوروبيَّة باعتبارها صَحوَة لهذه الإنسانيَّة من جَديد. (غينون، شرق وغرب، 2016، صفحة 62)

هَذَا التَّفسير المادِي الغربي لنشأة الكَون، يفرض نَفسَه بذاك القَدر الذِي يجعَل البَعض يُصنِّف الغَرب الحَدَاثي كـ"حضَارَة عالميَّة" تُبرز نفسَها كأنموذَج للتَّقَدُّم والتَّطوُّر، وفق وهم الحَداثَة التَّبشيري والتَّفاؤُل السَّاذَج لفلسَفة الأنوار. والحَال أنَّ التَّنوير كدلالَة عن (خُروج الإنسَان من حَالةِ قُصُور، ذاكَ القُصُور الذي يُكون الإنسَان نفسه مسؤولاً عنه، والقصُور، هنا، ليسَ عيبًا في العَقل؛ بقدرِ ما هو عَجز الإنسَان عن استعمَال مَلكَة عقلة دونَ إرشَاد الغير.) (ايمانويل، 2005، صفحة 85) ولهذا، فإنَّ أوَّل سمة تكوينيَّة لفكر الأنوار هو أن نختار ونقرره بأنفسنا، لا كما تفرضه علينا سلطة خارجيَّة عن إرادتنا، هنا ظَهَر التَّنوير حاملاً لثلاث قِيم، هي الحريَّة والاستقلالية الكاملَة في المساءَلة؛ (تيزيفيتان، 2007، صفحة 10) والعقل، أو العقلانيَّة، بما هي أداة لعقلنَة العَالَم وتحريره من الأوهَام والخُرافَات؛ والتَّقدُّم، الذي يَتّجسّد في المعرفَة العلميَّة. هذه القيم الثَّلاث جَسَّدَت المشروع الحَضاري الغربي وبشَّرَت الإنسَان باعتِماد المعرفَة العلميَّة. (بومنير، 2010، صفحة 19) في مقابل المعرفة الروحيَّة الميتافيزيقيَّة، بما هي معرفة تتجاوز العقل.

وبهذا المعنَى، ففكرة التَّقدُّم في الحضارة الغربيَّة، والتي يرجع ظهورها مع الفيلسوف الفرنسي بليز باسكَال، كمقاربة يشبِّه فيها الإنسَانيَّة بشخص دائم الوجُود، وهي من بين مميّزات الغَرب الحَدِيث، وهي مُحَاولَة منه للتَّخَلِّي، و، من ثمَّ، إنكَار القِيم التي كانت سَائِدَة في أوروبَا، وهي في جُملتها تطوُّر متصَاعد خَطيًّا مع الزمن؛ وهي أيضًا، رؤية تتناقض مع الوقائع المعروفة في التَّاريخ في

عَصر تعدّد الحَضارات وتنوُّعِهَا. (غينون، 2016، الصفحات 61-62) والأبعَد من ذلك، أنَّ فكرة التَّقدُّم شَمَلت مختلف أنماط الإنسَانيَّة، لتصبح شعارًا للتَّطوُّر وعَقيدَة رسميَّة في الغرب رغمَ تعدّد الاختلافَات في شأنهَا. (غينون، 2016، صفحة 63)

لهذا، تَزعَم الحضارة الغربيَّة أنَّها حَضارة علميَّة بامتياز، وكلمة عِلم، هنا، تتقارب مع كلمات أخرى مثل التَّقدُّم والماديَّة، وكذلك الحَقّ والحريَّة، التي هي من بين الكَينُونَات التي تُشكِّل الحَضارة الغربيَّة وتُؤسِّس لمعالمهَا على أنَّها اكتشافَات وفُتُوحَات وإبدَاعَات. (غينون، 2016، صفحة 72) والأبعد من ذلك، أنَّ التَّحوُّلات التي يعرضها علينا التَّاريخ منذ وقت طويل، هو تَقدّم إلى شيء أفضل وأكمَل، ذلك أنَّ المصير الإنسَاني يقوم على القابليَّة للتَّغيّر، هو التَّغيّر للأحسَن والأفضَل، والنُّزُوع نحَو تحقيق الكَمال. (ذهبان، 2020، صفحة 59)

يبدو أنَّ الحَضارة الغربيَّة القائمة أسَاسًا على سِمات قَيميَّة جَسَّدَتهَا فلسَفة التَّنوير بما هي خُروج عن الطَّابع السَّائِد، نَحو التَّقدُّم العلمي، والحريَّة السَّائلَة، والعَقلانية الجَرِيئَة. بهذَا المنظور تَصنَع الحَضارة الغربيَّة أنموذجًا من التَّطوُّر العلمي الذي يُنكِر كل أصلٍ روحِي في قيامِ هذه الحَضَارة، ما جَعَل العَدِيد من المفكّرين - من داخل نسق الحداثة نفسها- يُشكِّكُون في قيم الغرب نَقدًا ومراجَعَة مُتسائِلين عن الأصل الروحي لقيام هذه الحضارة.

3-2- الانحرَاف الروحِي ووهم التَّقدُّم المادِّي:

ليس ثمَّة خلاف في أنَّ الحَضارة الغربيَّة قَد نجحت في الخُروج عن الطَّابع اللاَّهُوتي الذي سَبَق أن خَيَّم على العَالم الغربي في لحظَة تاريخيَّة لطالما وُصِفَت بالانغلاق والظَّلام، وقَد تجسَّد هذا الخروج من الانغلاق في قيم الماديَّة والتَّقدُّم والتَّطوُّر التي كرسَّتها الأنوار وجسَّدتها الحَداثَة. لكن، هذا الانتقال المادِّي الجريء صَاحبَه تَدَنٍّ في الجانب الروحِي جَعَل الكثير من فلاسفَة الغرب يراجعون قيم الحضارة الغربية نقدا وتقويمًا.

ونجد من بين هؤلاء، المستشرق الفرنسي العلاَّمَة روني غينون الذي ينتمي في الأصل إلى الجيل الأخِير من مَدرسَة المستشرقِين الأوروبيين، باعتباره مُفكِّرًا ميتافيزيقيًّا ذا شَأن؛ تَلازَمَت دراسَته الأكاديميَّة مع نشاطاته الفكريَّة، وذلكَ بتقدِيمِ الهندوسيَّة والطَّاويَّة إلى الأوروبيين؛ فَضلاً عَن نَقد الغَرب الحَدِيث في كَثيرٍ مؤلفَاته بوصفِهِ كاتِبًا هدَّامًا -وهي الفِئَة التي أتناولها في هذه الدِّراسَة البَحثيَّة- ذا توجُّه باطِنِي. خالفَ حَقلَ دراسته نفسه، ولهُ من العُمقِ ما يَجعَله الكثير من المفكّرين في الغرب يدافعُون ويتبَّنَونَ أفكاره. (حلاق، 2019، صفحة 227)

ويعتبَي غينون بمراجعَة معالم الحَضارة الغربيَّة الحَديثَة التي تَزعَم وتَدَّعِي أنَّها عِلميَّة، مقابل إنكَار تامّ لكلّ تراثٍ روحِي، إذ تَظهَر حَضَارَة الغَرب الحَدِيث كَشُذُوذٍ روحِي باعتبَارهَا الحَضَارة الوَحِيدَة من بين كل،إن لم نَقل، أغلب الحَضَارات التي تَطَوَّرَت في اتِّجَاهٍ مادِّي بَحت مُنذ فَجر النَّهضَة، خَلَّف هَذَا التَّطوُّر المادِّي ارتِدَادا في الميدَان العِرفَاني مُتنَاسِب، بهذا القدر أو ذاك، مع ذلك التَّطوُّر المادي. لقد بلغَت الأزمَة حدًّا جَعَل الغربيين اليَوم لا يَعرفُونَ ما يُمكن أن يَكُونَ العِرفَان الخَالِص. بل زَادَ الغَرب نُكرانًا وازدرَاءً للحَضَارَات الشَّرقيَّة والعَصر الأوروبي الوسيط الذي انفتَحَ على المعرفَة الروحيَّة. (غينون، شرق وغرب، 2016، صفحة 55) وهذا الإنكَار والتَّجاهُل لكلّ عِرفَانٍ روحي خالِص -المُعَبِّر عَنه في الإسلام بالغَيب- فتَح الطَّرِيق نحوَ الفَلسفَة الوضعِيَّة واللاأدريَّة التي تنكر وجُود معرفَة حقيقيَّة، مُنتصرًا للإرادَة البشريَّة وتدخُلها في كل حُكم نفيًّا أو إثباتًا. وهنا يتساءَل غينون عن أهميَّة الحقيقَة في عالم كلّ طُموحاته ماديَّة وليست روحيَّة عرفانية! (غينون، 2016، الصفحات 56-57)

بهذا التَّطوُّر، ظَهَرت الحَضارة الغربيَّة مَبتُورة من كل أصل روحِي، غارقَة في الماديَّة الشَّاذّة والعَقلانية المتطرِّفة، وأوهام التَّقدُّم المُستفحَلة. وعليه، لا تعترف الحضارة الغربيّة بالأبعاد الروحيَّة، والفكر بالنِّسبة لها ليس سوى ملكة علميَّة محضَة لا تَستَطيع الخُروج عن المادّة من حيث هي حقيقَة مُطلقَة.

والأشدّ غرابة من كلّ هذا، هي الدّعوى التِي تَجعَل من الغرب أنموذَجًا حَتميًّا ينبغِي أن تَحذوه كل الحَضَارات الشَّرقيَّة، فيُنظَر إليه على أنَّهَا حَضارة تقدُّم وعقل، هذا العقل الذي يُردّ عادَة إلى ديكارت، ارتبطَ مباشرة بالفيزياء الميكانيكية كحرية للاعتقاد. وتُشير العقلانيَّة -التي لم تكُن قَد وجدت بعد- إلى ذلك التَّوجُّه الفلسفي الذي يجعل من تفوُّق العَقل اعتقَادا ومبدأً يستلزم بالمقابل -على نحوٍ عَكسي- نفي كل ما ينتَمِي إلى طِرازٍ فوقَ الفردِي، وبالأخصّ مجال البَصيرة الباطنية الخالصة، مما يؤدِّي منطقيًّا إلى إنكار كل معرفة ميتافيزيقية؛ ويؤول هذا النَّفي إلى رفض كل سُلطَة روحيَّة. (غينون، 2013، الصفحات 105-106)

وبهذا المعنى، تكون الحضارة الغربيَّة هي الوحيدة التي لا تعتمد على أي مَبدأ من طرازٍ عُلوي، وهذا نتيجة تطوُّرها المادِّي المتواصِل مُنذ قُرون؛ صاحَب ذلك نُكوصٌ روحي وتدَنٍّ عرفَاني، وهَذا الانحطاط لم يقع بشكلٍ مُفاجئ؛ بل كان ثمرة لمراحل تطور الفلسفة الحديثَة. ثمّ إنَّ فقدان -أو لنقل- إنكار الخلفية العِرفانيَّة الأصليَّة، أدَّي إلى تصعِيد العقلانيَّة وتكريس الماديَّة، وحَصل ذلك منذ ديكارت، ليكُون المآل -فيما بَعد- نحو الفلسفة الوضعيَّة واللاأدرية، كإنكارٍ لكل قدرة فوق بشريَّة؛ وسيطرة النَّزعَة العَلمويَّة. هذا المآل أنتَجَ، على نَحوٍ حَتمي، كل النَّظريات المعاصِرة التي لا تَقتنع إلاَّ بما هو عَقلي، فتبحث عما هو دونَ العَقل؛ وتُلغي كل ما هو أعلَى منه. (غينون، 2013، صفحة 7)

قَد ينتهِي القارئ المُتمعِّن والمُتفحِّص لواقِع الحَضارة الغربيَّة، إلى حَقيقَة مفادهَا أنَّ العَالم الغَربي قَد توغَّل في تَقدِيس الجَانب المادِّي عَلى حِسَاب الجانب الروحَانِي الذي كان، ولا يَزَال، سَائدًا في الحَضارات الشَّرقيَّة. هَذَا الاختيار، أنتَجَ، فيمَا بعد، تصوّرا سَائدا في الثَّقافَة الغربيَّة، تَصوُّر مبني عَلى التَّناسُب بين العَقليَّة المُضَادَّة للتُّراث الروحِي؛ وتَكريس مَبدأ حُريَّة التَّفكِير والاعتقَاد!

ولعلَّ هَذَا التَّلازُم و/أو التناسُب، أدَّى إلى ما يعيشه الغرب اليوم من "فَوضَى فكريَّة وعَقديَّة" وانجرَّ عَن هَذَا الخَطأ الشَّنِيع في تبجِيل الماديَّة وتنكيس الروحانية تَعدّد في الفِرق الدِّينيّة والنِّحَل الزَّائفَة والمذاهِب الفلسفيَّة الواهِمة إلى ابتداع الجَديد. (غينون، 2016، صفحة 74) وعندَما نتكلَّم عَن الفِكر، أو العَقل المُفكِّر، يكون المدلُول، هو التَّفكير الإنسَاني باعتباره ملكَات فرديَّة، وليسَ المقصُود، هنا، ملكات خاصَّة بفرد مع استثناء الآخَرين، وإنَّما المقصُود ملكَات تنتمي إلى الأفراد، كما هو عليه الغَرب الحَديث، (غينون، مراتب الوجود المتعدد، 2016، صفحة 115) وهم، أي الغَرب، إن افترضُوا وجُود شيء آخَر في الكَون غير المادَّة، سَارعُوا إلى وصف هذَا الشَّيء بأنَّه "مجهُول" لا يُحيط به العِلم، فيعفيهم ذلك، أو يعفون أنفسهم، عن داسته، ومنهم من يبتغِي تكوين فكرة عن عالمٍ آخر -غير العالم المادي- مُستعينًا في ذلك بالخَيال والوهم. (غينون، 2019، صفحة 185)

وفي هَذَا المستَوى بالضَّبط، يتهافتَ خِطاب الحَضارة الغربيّة كامتيازٍ عَن سَائر الحَضَارات الأخرى، الشَّرقيَّة خاصَّة، وذلكَ عَبرَ التَّفكير المادِّي المنعَزل، و، من ثمَّ، المبتور عن كلّ تفكير علوي وترقٍ روحاني.

هذَا المآل الذي أوقَع الغربيون فيه أنفسهم، جَعَلهم يراجعون قيمهم عَلى أمل إنقاذ حضارتهم من الهَلاك المحتُوم ولو على سَبيلِ الوَهم والخيَال العَجِيب، كتصوُّر لا يَعدوا، في غالب الأحيَان، سوَى ضَربًا من الماديَّة المنحرفة. هَذَا التَّصوُّر، قَد يظهر عبر المذهب الروحي الجديد néo-spiritualisme؛ كما قَد يتجلَّى في المذهب الروحي الفلسفي الذي يُعدّ خَصمًا للمذهب الفلسفي المادِّي، رغم أنّ كلاهما يمثلان الثنائية الديكارتيّة، معنى ذلك أنَّه لا يُمكن-بأي حالٍ من الأحوَال- فهم أحَد المذهبين بمعزل عن الآخَر. (غينون، 2019، صفحة 186)

وما يزيد الأمر غرابَة، أنَّه في الوقت الذي يفرض الغرب نفسه حضارة وأنموذجًا للتَّقدُّم والتَّطوُّر؛ تتعالى الأصوات وتزاد من داخل نسق الحضارة الغربيَّة نفسها، مُحذِّرة من الخَطَر الدَّاهم الذي يهدّدها، وهو اختراق أفكار الميتافيزيقَا الشرقيَّة من داخل الغرب نفسه، (غينون، 2016، صفحة 112) والمقصود بالميتافيزيقَا الشَّرقيَّة، حسب روني غينون، هو المعرفة بما فوق الطبيعة

في الشَّرق، أي المذاهب والمناهج الروحيَّة العرفانيَّة التي كانت موجُودَة في الغَرب، ذلكَ أنَّ الحَديث عن الميتافيزيقا الشرقيَّة خصّيصًا بات -بهذا القدر أو ذاك- أمرًا منسيًّا ومجهُولاً في ظلّ الأوضَاع المهيمنة في الوقت الرَّاهن على الغَرب. بينما هذه التُّراثيات الميتافيزيقيَّة لا تَزال على الدَّوام موضوع معرفة فعليَّة في الشَّرق. (غينون، 2019، الصفحات 14-15)

يُمكن القَول، إذًا، ومما سَبق، أنَّ الغرب بما هو أنموذَج حَضَاري يفرض نفسه كرؤية إلى العَالم، وذلك عبر توطين العَقل كمبدأ للمراجَعة والمسَاءَلة الماحِصَة؛ والمادَّة، كعنصر لنشأة الكَون؛ والتَّقدُّم، من حيث هو نزوعٌ نحو التَّطوّر، مع إنكار تامّ لكلّ ما هو ميتافيزيقي روحي خَالص. كل هَذَا جعل الغرب يعيش التَّعاسَة والضَّياع، بل بدأ الحديث عن إمكانيَّة وقوع إفلاسٍ تامّ وشُذوذٍ حَقيقي للحَضارة الغربية!

4- تَصَاعُد الأزمَة بين الفردانيَّة والروحانيَّة النَّازِلَة:

من المؤكَّد أنَّ الإفلاس الذي أضحَى يُهدّد الحَضارة الغربيَّة جَعَل روني غينون يُشخِّص حال الغرب الحديث نَقدًا وتَقويمًا، إذ له من الشَّجَاعَة الفكرية ما مكنَّه من الغَوص في أعمَاق الحدَاثَة ليصِل، في النهاية، إلى تشخيص أزمتِهَا، و، من ثَمَّ، معرفة مآلاتِهَا الانحطاطيَّة.

ويتضمَّن نقد غينون -بأقوى الطُّرق الوجوديَّة والمنطقيَّة الممكنة- أسئلة جَوهرية مُتعلِّقَة أسَاسًا بوضع الحَداثَة الغربية ضمن تاريخ حَضَارات العَالم. وقَد عبر برفضه الحاسم لعقيدَة التَّقدُّم، وأنَّ الحَدَاثَة الغربيَّة بماديتِهَا ضَلاَلاً وانحِرَافًا صَريحًا. بل إنَّ حضارة الغرب هي الوحيدة -بمقدار يزيد أو ينقص- التي قَامت على أسُسٍ ماديَّة مَحضَة، ورغم تطورها، وهو الأمر الذي لا يمكن على الإطلاق نُكرانه، إلاَّ أنَّها احتَوَت على تخلُّفٍ فكري موازٍ لذاك التّطوُّر الحَداثِي. (حلاق، 2019، صفحة 230) وقد تشكَّلت، حسب غينون، منذ القرن السَّادس عَشر الفرديَّة التي تُؤدِّي إلى الفَوضَى الاجتماعيَّة، بل أضحَت الحَضَارة الغربيَّة حَضارة ماديَّة تهدّد البشريَّة. (Chacornac, 2019, p. 129) وفي هذَا الصَّدد بالذَّات لا يُمكن، بأي حالٍ من الأحوَال، أن نتجاوز مَظاهر الفَوضَى الاجتماعيَّة التي استفحلت في العالم الغربي الحَديث. (Guénon, 2018, p. 121)

والفردانيَّة، بحسب غينون، وبصريحِ العبارَة، هي إنكَارٌ لأي مَبدأ أعلى من الفرديَّة، و، من ثَمَّ، اختزَال كل ما أنتجَته الحضارة الغربيَّة، وأيضًا، الحَدَاثَة، في عناصر بشريَّة مَحضَة. وهي في حقيقتها ما عُبِّر عَنه في عَصر النَّهضَة بـ"الإنسَانيَّة" أو ما يُسمِّيه غينون، في موضعٍ آخَر، بـ"وجهَة النَّظر الدُّنيَويَّة". فكل هذه التَّسميات تُلخِّص، على وجه التَّحديد، الاتّجاهات الحَديثَة. (Guénon, 2018, p. 99) هذا وقد كثر الكلام في عصرنا هذا على الإنسيَّة و/أو الإنسَانيَّة Humanisme لكن، من يتكلَّمون عليها، ويتغنَّوْنَ بها، ينسَونَ أنَّ الإنسَان لا يَبقَى في الواقع "إنسَانيًّا" إن هو تخلَّى عن امتيازاته للمادَّة والآلة والمعرفَة الكميَّة. (شيون، 1978، صفحة 36)

وعليه، فالفَوضَى الاجتماعيَّة في الغرب الحديث، كانت نتيجة حَتميَّة للعَقيدة المادية، والتي تُرجع كل شيء في الكَون إلى المادَّة؛ والنَّزعَة العَقلانية، التي تُفسِّر ظواهر الكَون عن طريق مبادئ العَقل؛ والفردانيَّة، (Individualisme / Individualism) التي تؤمن بأن الفرد غاية في ذاته، لا يحتاج لأي مصدر روحي وربَّاني. كل هذا أنتج فوضَى لاَزَمت الفرد الغربي الحداثي، فوضَى اجتماعية ونفسية جَعلت الفرد والمجتمع يعيش نَوعًا من الأزمَة وحالة من اللاَّيقِين.

وهكذَا، فأزمة العالم الحديث، إذًا، هي نتيجَة إخلاء الاتصال الروحي، و، من ثَمَّ، تنصِيب الدَّافع المادِّي في مركز الوجُود الحداثي. وليست الحداثَة سوى جَوهر غربي بدأ في أوروبا مع نهاية القرون الوسطَى عَلى شكل تمرُّد السُّلطة الزَّمنيَّة ضدَّ مبدأ السُّلطَة الروحيَّة. (BEN AISSA, 2007, p. 103) هذا التَّمرُّد على كلّ سُلطة روحيَّة، أسفَر عن تعارُض بين الشَّرق الروحي، والغرب المادِّي، بل إنَّ الفَوضَى الحَديثَة -والتي نشأت حَصريًّا في الغَرب- ظلَّت تمتدّ إلى كل مكَان من أرجَاء العالم، ويبدو أنّ وصولها إلى الشَّرق بات، بهذا القدر أو ذَاك، أمرًا وشيكًا. فالغَزو الغربي كان، ولا يزال، مَقصُورًا على هيمنَة أكثر أو أقلّ وحشيَّة تُمَارَس على

الشُّعُوب الأخرى، خاصّة على المستوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادِي. ولعلَّ هذا الانحراف ساهمت فيه بشكل كبير الجامعات الغربيّة والأمريكيَّة. (Guénon, 2018, p. 163) ذلك أنَّ الأوروبيون يظنون أنَّ لعلمهم تفوُّقًا يجعله ذا رَوعَة مُدهشَة، ويتخيَّلون أنَّ الشُّعُوب الأخرَى مُلزَمة بالسَّير على النَّهج الغربي. (مفتاح، 2019، صفحة 281)

من خلال ما سَبق، يبدو جليًّا أنَّ الماديَّة الغربيَّة بما في ذلكَ الفوضَى النَّاتجَة عَن تَطبيقِ العقلانيَّة السَّاذَجَة المبتُورَة من كلّ تراثٍ روحِي باتت، بشكلٍ أو بآخَر، تفرض نفسَهَا على باقِي الشُّعُوب الأخرى بما فيها الشُّعوب الشَّرقيَّة على وجه الخُصُوص. ولعلَّ ما يَجعَل الغرب يفرض نفسه على الشرق، هو أنّ الحضارات الشَّرقيَّة لا تزال تحتكم نوعًا ما إلى التراث الروحِي العِرفاني، وبالمقابل، نشأت الرؤية الغربيَّة على هفوَات الماديَّة التَّاريخيَّة التي لم يكن لَها، على الإطلاق، أي نوازع روحيَّة، متوغِّلة بذلك في الأزمة والانحراف.

والأبعَد من ذلك كلّه، أنَّ الشَّرق الآن قَد انضمَّ، أو في طريقه للانضمام، إلى الغَرب واقعًا بذلك في حَيرةٍ وغربَة ورفضٍ للتَّقاليد البدائيَّة، ناسيا أنَّ الإنسَان الغربي وحَضارته الماديَّة وصلت اليوم إلى حدود الانهيار. (Guénon, Initiation et réalisation spirituelle, 2019, p. 9) هذا بالتحديد ما عبَّر عنه ابن خلدون قائلاً (أنَّ المغلُوب على أمره مولعٌ أبدًا بالإقتداء بالغَالب في شعاره وزيّه ونحلته وَسائر أحواله وعوائدهِ، والسَّبب في ذلكَ أنَّ النَّفسَ أبدًا تعتقد الكَمَال في مَن غَلبَهَا.) (ابن خلدون، 2012، صفحة 146) وهكذَا، يجعل الشَّرق من الغرب أنموذَجًا ينبغِي أن تحذوه كل الحضارات الأخرى، بل ويُنظَر إليه -أي الغرب- على أنَّه "الحضارة" بامتيَاز. وعليه، فليست فكرتي "التَّقدُّم" و"الحَضارة" إلاَّ تعبير عن حقيقتَين ضروريتين بإجمَاعِ العالم بأسره. (غينون، 2016، صفحة 59) رغم أنَّ هذا الغرب بات مهدّدا بالزوال جرَّاء الفصل بين المجالين الروحي والمادي الزمني مع تفضيل لهذا الأخير.

وهذه المخاطر المتعلّقَة بالوَشَائج بين المجالين الزَّمني والرُّوحي؛ والتي تطورت خلال القرون الأخيرة ليست بالجديد. لكن، آثار امتدادهَا في أيامنا هذه باتت مُرعبَة، فقد صَارت هذهِ الأخطَار مُندرجَة تحت وضع ذهنِي يتسَارع تفشّيهِ العامّ، وهو وضعٌ خَطير مُقلِق، وإن لم يَحدُث له تَقويم خلال المدَى القَريب فمن المُتوَقَّع أن يجرَّ العَالم نَحوَ كارثَة. (غينون، 2018، الصفحات 14-15) هذا وقد أصبَح الحَديث عن النِّهَاية يظهر بشكلٍ مُكثَّف بعد التَّفكُّك الذي مَسَّ النَّسَق الحَدَاثي بكل حُمولاته المُثَّقَلة بالماديَّة والعَقلانيَّة، وآلَ إنسَان الحَدَاثَة إلى كائن واقعٍ في الفَراغ العَدَمِي خَالٍ من القيم، بعدمَا جَففت الحَدَاثَة -بكل تجلياتها- كل منابعه الروحيَّة، وأصبَح الجَدَل حَول "النهاية" هل هي نهاية حضَارة أم نهاية العالم؟ (ذهبان، 2020، صفحة 132) وبحسب غينون فهذه النِّهَاية (ليسَت نهاية العالم [...] بقدر ما هِي نهايَة عَالمٍ مَا، وإذَا كان هذا الذي ينبغِي أن ينتَهِي هو الحضارة الغربيَّة بشكلها الرَّاهن، [...] وعلى اعتبارها "الحَضارة" من دون نعتٍ، يعتقدون بسهولةٍ أنَّ كلّ شيء سينتهِي بانتهائِهَا، وإنَّها إذا زالت سَتكون فعلاً "نهايَة العالم".) (غينون، 2016، صفحة 13)

معنى ذلكَ أنَّ أزمَة الحَضارة الغربية باتت واقعًا، ومن ثمَّ، فنهايَتها أضحَت، بهذا القدر أو ذاك، أمرًا وَشيكًا وحَتميّ، ومردّ ذلك إلى التَّوغُّك الذي ظهر على مُستوى الحَداثَة؛ وذلك الخَواء الروحِي الذي آلَ إليهِ الإنسَان الحَداثي لا يُنذِر فقط بنهاية حضارة الغَرب؛ بقدر ما سيؤدي إلى نهاية العالم بالنِّسبة لأولئك الذين يرون في الغرب "أنموذَجا حَضَاريًّا عالميا". لهذَا، فالأزمَة التي أوقَع الغَرب فيهَا نَفسَه باتت، بقدرٍ أو بآخَر، تهدد بِزوَاله وانهيَاره. وتنطَلق معَالم الانهيَار من داخل نَسَق الحَضارة الغربيَّة، وهَذَا إن دَلَّ عَلى شَيء إنَّمَا يدلّ عَلى النِّهَايَة الوَشيكة لهذه الحَضَارة التِي تَوَغّلت في الماديَّة مُتجَاهلَة بذلكَ كل أثَار الروحانية.

وفي ذات السِّياق، نجد طه عبد الرحمن (1944) يَرى أنَّ الأزمة التي أصَابت الحضَارة الغربيَّة والمعرفة الحَديثَة سببها تَقرير الانفصَال بين العَقل والغَيب، (طه، 2000، صفحة 95) وبهذَا الانفصَال، يُصبح الوجُود والفعل الإنسَانيين ضحيّة لاختزالهمَا في حَدَاثة لا تُفعِّل العَقل إلاَّ تألُّهًا مُتنزّلاً أو تعاليًّا وسيليًّا؛ ولا يرى في الحريَّة إلاَّ تَسيُّبًا إبَاحِيًّا أو تَوَحُّدًا فَردَانيًّا؛ ولا تتصوَّر التَّقدُّم إلاَّ

إنتَاجيَّة استغلاليَّة ونُموًّا استهلاكِيًّا. هذا ما سيجعل مآل الحَداثَة -فيما بعد- ليست سوى عولمةً في اتّجاهٍ ذو تنميطٍ أحَادِي مُشتغِل بآليَّة الفَوضَى الخلاَّقَة. (الكور، 2013، صفحة 30)

ومن ثمَّ، فسُقوط الغَرب الحَديث بات قاب قَوسين أو أدنَى، وذلكَ لتفشِّي السُلطَة الزمنيَّة على حسَاب السُّلطَة الروحيَّة؛ ناهيكَ عَن تبجيل الماديَّة وتدنيس لمختلفِ أشكَال الروحانيَّة؛ فَضلاً عَن مُعَادَاة الميتافيزيقَا بما هي معرفَة فوق عقليَّة، وليس كما يدَّعِي الغربيُون، عاجزين عَن فهمها لأنَّهم اعتادُوا على أن لا يتصوَّرُوا معرفةً بمنأى عن المعرفَة العقليَّة.

ولأنّ سُقوط الغرب أضحَى حقيقَة لا تهويلَ فيها، لكن، ذلكَ لا يَنفي وجُود أمل في إنقَاذ الحضارة الغربيَّة من الأزمة التي باتت تترصَّد الإنسَان الغربي، ويَكمُن ذلك، بحسب روني غينون، في ضرورة العَودة إلى إحياء التُّراث الرّوحي من حيث كونه (معرفَة من طِراز فوق بشري، وبالتَّالي، لا يُعتبر تراثًا أصيلا إلاَّ ما كان مُرتبطًا بالوَحي الإلهي [...] وأنَّ كلّ ما هو من نَمط بشري صرف لا يصحّ لهذا السَّبب نفسه أن يُصنَّف شَرعًا بأنَّه تراث أصيل.) (غينون، 2013، صفحة 232)

فالتراث، إذًا، ليس شيئًا ماديًّا ألحِق بالماضِي البعيد أو القريب؛ بقدر ما هو المعرفَة ذات الطِّراز الروحِي. لهذَا، فالتَّعريفات المُتدَاولَة للتّراث هي أخطَاءٌ جَسيمَة في تقدِير غينون، وليس هناكَ -على الإطلاق- تراث بمعزل عن الوحي الإلهي الربَّاني. بهذا المعنَى، نجد المفهوم الإسلامِي للتّراث قائم على كلّ تراث دينِي، على خلاف أوروبَا اليوم، والتِي تجعَل الدِّين عنصُرا من عناصِر النِّظام الاجتماعِي؛ في حين أنَّ الإسلام يجعل من النَّظام الاجتماعِي عُنصُرًا جوهريًّا من الدّين. (غينون، 2002، صفحة 66)

من هنا، فمهمَّة إنقَاذ الغرب من الأزمَة، تكمُن في ضرورة العَودَة إلى التَّعاليم الروحانيَّة. وليسَ هذَا فحسب، بل إنَّ السُّلطة الروحيَّة والقوة الزَّمنيَّة يُشكِّلان مُكمّلاً لا يُستغنى عنه في الشرق والغرب والعالم الحديث، مَعنَى ذلكَ أنَّ عَودَة الغرب إلى تقاليده تعنِي ضمنيًّا إدراك العلاقَة الطَّبيعيَّة بين الروحِي والزَّمنِي. (Chacornac, 2019, p. 139) و، من ثمَّ، ضرورة استعادَة المعرفَة الشَّرقيَّة بما هي معرفة فوق العقل. (Chacornac, 2019, p. 129) بيْدَ أنَّ الحضارات الشرقيَّة، أو التي نطلق عليهَا عبارة "حضارات تقليديَّة" مُنظَّمَة بطريقَة تجعل من الممكن الحُصُول على العون الفعَّال. (عبد العزيز، 1996، صفحة 20)

هذه العودَة، إذًا، أضحَت ضروريَّة على نَحوٍ يجعَل الفرق الشّاسع بين الشرق والغرب الحديث يكمن، حَصريًّا، في أنَّ الشّرق قَد حافظ -أو استطاع على الأقل- الحِفاظ على تراثه وتقاليده المتوارثَة بكلّ ما تتضمّنه من مجالات؛ بينَمَا الغرب الحديث قد تنَاسَى أو أضَاعَ هذا التّراث المُتوارَث. أو بعبارة أخرى، إنّنا نجد في الشَّرق توصُلاً مع المعرفة الغيبيَّة؛ بينما لا نجد في الغَرب الحديث سوى جَهل مُطبَّق. (عبد العزيز، 1996، صفحة 21)

من هنا، بات لزامًا على الغرب الحديث أن يُراجع نفسه ويراجع معالم حضارته مراجعةً تجعله ينتبه أكثر للتراث الروحي الذي لطالما كان له دور فعال في قيام الحضارات، ومن ثمّ، سيستطيع الغرب تجاوز الفجوة بين الثقافات والحضارات. ومراجعة الغرب لحضارته سيحطِّم ذاك الشعور بالاستعلاء والتَّحامُل على باقي الحضارات بما فيها ذلك الحضارات الشرق.

5- الخاتمة:

يمكن القول، إذًا، في نهاية المطاف، أنَّ الحضَارة الغربيَّة اليوم باتت تفرض نفسَها، بهذا القدر أو ذاك، أنموذَجًا للتَّقدُّم والتَّطوّر الذي لطالما تطلَّع إليه الإنسَان محاولاً تغيير واقعه المأساوي نحو الأفضل، لهذَا، قامت الحضارة الغربية الحديثَة على مجموعَة من الأفكار المعادِيَّة لكل ما هو تقليدِي معلنَة أنَّ الحداثَة بكل تجلّياتها أسمى ما وصل إليه العقل الأوروبي. فالحَدَاثَة من حيث هي جُملة قيم، لطالما أنقذَت الإنسَان الغربي من ظلام سُلطوِي خيَّم طيلة قرون كانت فيه الكَنيسَة تضطهد كل تفكير خارج تعاليمها.

لكن، هذه الأماني الحداثيَّة، وأنموذج الحضارة الغربيَّة، احتوى على بذورِ فنائِه، وذلك لما فيه من تصعيدٍ للماديَّة وتبجيلٍ للفردانيَّة، وتنكيسٍ لكلّ ما هو روحي عِرفاني. فلا يخفى أنَّ الحضَارة الغربيَّة، بما في ذلك الحداثَة، ومنذ بزوغ تفاؤُل الأنوار الذي جسَّد ركائز هذه الحضارة عبر كل من الحريَّة كاستقلالٍ دون وصايَا؛ والعَقلانيَّة، كجرأة على المساءَلة النَّقديَّة؛ والتَّقدُّم، كطموح ضدّ الجهل والظَّلام. غير أنَّ كل هذه الركائز التي قامت عليها الحداثَة، مُتمثِّلة حصريًّا في الحضارة الغربيَّة، قد توغلَّت في الماديَّة بذلك القدر الذي جَعل الكثير من مُفكِّري الغَرب يُراجعون واقع الحضارة الغربية ويُشخِّصُون نتائجها نقدًا وتقويمًا، ونجد روني غينون، على سبيل المثال، كمفكّر هدَّام وفيلسوف ناقد، ينتقد الغرب وحضارته الحداثيَّة من داخل الحضارة الغربيَّة نفسها، فعمل على وضعها، أي الحضارة الغربية ومختلف منتجاتها، على محكَّ النَّقد الروحي والمُسَاءَلَة العرفانيَّة. وانتهى نقد غينون لتشخِيصِ أزمة مستفحلَة داخل الحضارة الغربيَّة.

وتتمثَّل هذه الأزمَة، في كونِ الحضَارة الغربيَّة قَد سَجنت نفسَها ضمن أضلُعِ الماديَّة القاتلَة وأضحَت بذلك مبتُورة عن كل ترقٍ روحِي ومَعزولَة عن كل مصدر ربَّاني، وهذه العُزلة ساهمت، بقدرٍ أو بآخَر، في تَفشِّي فوضَى اجتماعيَّة، ومن ثمَّ، سيطرة السّلطَة الزمنيَّة على حسَاب السّلطَة الروحيَّة، هذه السّيطرة جَعلت الإنسَان الغربي، والحَداثِي حَصريًّا، يعيش سَجينًا للمادة وضحيَّة للفردَانيَّة الطَّاغيَّة. هذه الأزمة التي وضع الغرب فيها نفسَه جعلته لا يُدرك، أصلاً، ما هو العرفان الروحِي!

لهذا، كانَ لا بدَّ، وعلى نحو الضَّرورة، عَودة هذه الحضارة إلى شيء من التَّعاليم الروحيَّة التي لا تَزال مَبثوثَة في الشَّرق، و، من ثمَّ، الانتصار للميتافيزيقَا بما هي مَعرفَة فوق العَقل تتعدَّى المعرفة الماديَّة. بيدَ أنَّ التراث الروحي الشرقي من حيث هو معرفة فوق بشريَّة، سيساهم، بهذا القدر أو ذاك، في إنقاذ الغرب من تفشِّي الماديَّة وسيطرة السلطة الزَّمنيَّة. بل ستساهم المعرفة الشرقية في إدراك العلاقَة الوطيدَة بينَ كل من السُّلطتين الرّوحيَّة والزَّمنيَّة، باعتبَار أنَّ السلطة الزمنيَّة والروحيَّة سيشكِّلان في نهاية المطاف، مُكمِّلاً لا يُمكن، بأي حالٍ من الأحوال، الاستغنَاء عنه في العالم الحَديث.

في الأخِير، يُمكننَا أن ننتَهي بهذه الدراسَة البحثية لعدَّة نتائج، ولعلَّ أبرزهَا، أنَّ الماديَّة الغربيَّة بماديتهَا الشَّاذَة ضَلالاً؛ والحَدَاثَة بعقلانيتها الطَّاغيَّة انجِرافًا، وأنَّ الابتعَاد عن التعاليم الروحانيَّة العرفانية سيؤدِي في نهاية المطاف إلى تَصعِيد الماديَّة وتَنكِيس الروحانيَّة، هَذَا ما سيخلق نوعًا من الفَوضَى الاجتماعيَّة، مُتمثَّلة في الفردانيَّة القاتلَة، كتلكَ التي وَقَع فيهَا الغرب الحديث. والتي جعلته يُعانِي الأزمَة.

ويُمكن أن نقدِّم في النّهاية مجموعَة من الاقتراحات ذات الصِّلة بالموضُوع، ولعل أهمّها:

- بات من الضروري أن يُراجع الغرب نفسه ومعالم حضارته بذاك القَدر الذي يجعله ينتبه أكثَر للقيم الروحيَّة التي لطالمَا ساهمَت في تشكيلِ الحضارات.
- أصبح من الضَّروري وضع الماديَّة الغربيَّة، وأيضًا العقلانية، على محكّ النَّقد الفلسفي والروحِي، و، من ثمَّ، مراجعتهَا وتقويمهَا بما يجعلها في اتِّصَالٍ دائِم مع التعاليم الروحانيَّة التي كانت مبثوثَة في العصور الوسطَى.
- المراجعَة النَّاقدَة للحضارة الغربية يُمكنهَا أن تَخلِّص الغرب من الأزمة التي تهدده، وتُنقذه من النهاية التي باتت تترصَّده.
- محاولة استثمَار فكر روني غينون، وتلامذته من أجل مراجعَة كل انحرافٍ روحي، ووهم مادِّي يهدد الإنسَان.

- قائمة المراجع:

أبو النور حسن حمدي. (2012). يورغن هابرماس الأخلاق والتواصل. ط1. بيروت، لبنان. مؤسسة ديمو برس.

آلان تورين. (1998). نقد الحداثة. (أنور مغيث، المترجمون). دط. الكويت. المجلس الأعلى للثقافة.

أندري لالاند. (2001). الموسوعة الفلسفية. (أحمد خليل خليل، المترجمون). ط2. بيروت، لبنان. منشورات عويدات.
تودوروف تيزيفيتان. (2007). روح الأنوار. (حافظ قويعة، المترجمون). ط1. بيروت، لبنان. دار محمد علي للنشر.
جمال الدين ابن منظور. (1303). لسان العرب. ط1. القاهرة، مصر. المطبعة الميرية.
حمو النقاري. (2018). مفاهيم التفلسف الغربي. ط 1. بيروت، لبنان. المؤسسة العربية للفكر والإبداع.
روني ديكارت. (1991). مقالة في الطريقة. (جميل صليبا، المترجمون). ط1. الجزائر. دار موفم.
روني غينون. (2019). أزمة العالم الحديث. (أسامة شفيع السيد، المترجمون). ط1. بيروت، لبنان. مركز نماء للبحوث الجامعية.
روني غينون. (2018). السلطة الروحية والحكم الزّمني. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحديث.
روني غينون. (2019). الميتافيزيقا الشرقية. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. الجزائر. المكتبة الفلسفية الصوفية.
روني غينون. (2013). رموز العلم المقدّس. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحديث.
روني غينون. (2016). شرق وغرب. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحديث.
روني غينون. (2002). مدخل عام إلى فهم النّظريات التراثية. (عمر عمر الفاروق، المترجمون). ط1. القاهرة، مصر. المسروع القومي للترجمة.
روني غينون. (2016). مراتب الوجود المتعدد. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحديث.
روني غينون. (2013). هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان. (عبد الباقي مفتاح، المترجمون). ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحديث.
زيادة معن. (1986). الموسوعة الفلسفية العربية للإصطلاح والمفاهيم. ط1. القاهرة، مصر. مركز الإنماء القومي.
زينب عبد العزيز. (1996). مقالات من رينيه جينو. ط1. مصر. دار الأنصار.
شادي فقيه. (2002). الرؤية الكونية من المادية إلى العرفان. ط1. بيروت، لبنان. مركز دار العلم للدراسات.
عارف محمد نصر. (1994). الحضارة الثقافة المدينة. دط. الولايات المتحدة الامريكية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
عبد الباقي مفتاح. (2019). الملة الأصلية غينون وابن عربي والجيلي. ط1. الجزائر. المكتبة الفلسفية الصوفية.
عبد الجليل الكور. (2013). الإسلام يسائل الحداثة. ط1. إربد، الأردن. عالم الكتب الحدبث.
عبد الحكيم بليلطة. (2018). المعجم الفلسفي. ط1. بن عكنون، الجزائر. كنوز الحكمة.
عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون. (2012). المقدّمة. ط1. بيروت، لبنان. دار الكتاب العربي.
عبد الرحمن طه. (2000). شؤال الأخلاق. ط1. بيروت، لبنان. المركز الثقافي العربي.
عبد الوهاب المسيري. (2001). العالم من منظور غربي. ط1. الكويت. دار الهلال.
عبد الوهاب المسيري. (2013). العلمانية والحداثة والعولمة. ط4. بيروت، لبنان. دار الفكر المعاصر.
عبد الوهاب المسيري، و فتحي التريكي. (2012). الحداثة وما بعد الحداثة. ط 2. رويبة، الجزائر. دار الوعي.
فريتجوف شيون. (1978). كيف نفهم الإسلام؟. (عفيف دمشقية، المترجمون). ط1. بيروت، لبنان. دار الآداب.
كانط ايمانويل. (2005). ثلاث نصـــوص تأملات في التربية ما الانوار؟ ما التوجه في التفكير؟. (محمود بن جماعة، المترجمون). ط1. تونس. دار محمد علي.
كمال بومنير. (2010). جَدل العقلانية في النظرية النقدية لمدرية فرانكفورت. ط 1. الجزائر. منشورات الإختلاف.
محمد الصادقي. (1987). حوار بين الالهيين والماديين. ط2. بيروت، لبنان. دار المرتضى.
محمد سعدي. (2012). دور الثقافة في بناء حوار بين الأمم. ط1. الإمارات. مركز ابن خلدون للدراسات الإستراتيجية.
مفيدة ذهبان. (2020). الروحانية النازلة نقد المادية الغربية في فكر روني غينون. ط1. النجف، العراق. المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجيَّة.
وائل حلاق. (2019). قصور الاستشراق. (عثمان عمرو، المترجمون). ط1. بيروت، لبنان. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
Ben aissa, H. (2007). Les fondements ideologiques de l'anthropologie moderne. Abderrahmane Mira. el Maarifa.
Chacornac, P. (2019). La vie simple de René Guénon. Alger. Librairie Philisophie et de Soufisme.
Guénon, R. (2019). Initiation et réalisation spirituelle. Alger. Librairie de Philosophie et de Soudisme.
Guénon, R. (2018). La Crise du monde moderne. Alger. Libraire de Philosophie.

Arabic-Romanized references:

Abd al-Baqi Miftah. (2019). Al-Millah al-Asilah Guenon wa ibn Arabi wal-Jili. Ta'1. Al-Jaza'ir. Al-Maktabah al-Falsafiyah al-Sufiyah.

Abdel Hakim Bilayltah. (2018). Al-Mu'jam al-Falsafi. Ta'1. Bin Aknoun, Al-Jaza'ir. Kunooz al-Hikmah.

Abdel Jalil Al-Kur. (2013). Al-Islam Yass'al al-Hadathah. Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Abdel Rahman ibn Mohammed Ibn Khaldun. (2012). Al-Muqaddimah. Ta'1. Beirut, Lubnan. Dar al-Kitab al-Arabi.

Abdel Rahman Taha. (2000). Shu'al al-Akhlaq. Ta'1. Beirut, Lubnan. Al-Markaz al-Thaqafi al-Arabi.

Abdel Wahab al-Messiri, wa Fathi al-Tariki. (2012). Al-Hadathah wa ma Ba'd al-Hadathah. Ta' 2. Rouiba, Al-Jaza'ir. Dar al-Wa'i.

Abdel Wahab al-Messiri. (2001). Al-Alam min Manzoor Gharbi. Ta'1. Al-Kuwait. Dar al-Hilal.

Abdel Wahab al-Messiri. (2013). Al-'Ilmaniyah wal-Hadathah wal-'Awlama. Ta'4. Beirut, Lubnan. Dar al-Fikr al-Mu'asir.

Abu al-Nur Hassan Hamdi. (2012). Yurgen Habermas Al-Akhlaq wal-Tawasul. Ta'1. Beirut, Lubnan. Mu'assasat Demo Press.

Alan Tourain. (1998). Naqd al-Hadatha. (Anwar Mogheeth, Al-Mutarjimoon). D.T. Al-Kuwait. Al-Majlis al-A'laa lil-Thaqafa.

Andre Laland. (2001). Al-Mawsu'at al-Falsafiyah. (Ahmad Khalil Khalil, Al-Mutarjimoon). Ta'2. Beirut, Lubnan. Manshoorat Oweidat.

Aref Mohammed Nasr. (1994). Al-Hadarah Al-Thaqafah Al-Madinah. D.T. United States of America. Al-Ma'had al-Alami lil-Fikr al-Islami.

Fritjof Schuon. (1978). Kayfa Nafham al-Islam?. (Afif Dimashqiah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Beirut, Lubnan. Dar al-Adab.

Hamou al-Naqari. (2018). Mafahim al-Tafalsuf al-Gharbi. Ta'1. Beirut, Lubnan. Al-Mu'assasah al-Arabiyah lil-Fikr wal-Ibda'.

Jamal al-Din ibn Manzoor. (1303). Lisan al-Arab. Ta'1. Al-Qahira, Misr. Al-Matba'a al-Amiriyah.

Kamal Boumonir. (2010). Jadl al-'Aqlaniyah fi al-Nazariyah al-Naqdiyah li Madrasat Frankfurt. Ta' 1. Al-Jaza'ir. Manshoorat al-Ikhtilaf.

Kant Immanuel. (2005). Thalath Nasoos Ta'amulat fi al-Tarbiyah Ma al-Anwar? Ma al-Tawajuh fi al-Tafkir?. (Mahmoud Ben Jama'a, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Tunis. Dar Muhammad Ali.

Mohammed al-Sadiqi. (1987). Hiwar Bayn al-Alahiyeen wal-Madiyeen. Ta'2. Beirut, Lubnan. Dar al-Murtada.

Mohammed Saadi. (2012). Dawr al-Thaqafah fi Bina' Hiwar Bayn al-Umam. Ta'1. Al-Emarat. Markaz Ibn Khaldun lil-Dirasat al-Istrategiyah.

Mufida Zahban. (2020). Al-Rouhaniyah al-Nazilah Naqd al-Madiyah al-Gharbiyah fi Fikr Rene Guenon. Ta'1. Al-Najaf, Al-Iraq. Al-Markaz al-Islami lil-Dirasat al-Istrategiyah.

Rene Descartes. (1991). Maqalat fi al-Tariqa. (Jamil Saliba, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Al-Jaza'ir. Dar Mouvm.

Rene Guenon. (2002). Madkhal Am ila Fahm al-Nathrbiyat al-Turathiyah. (Omar Omar al-Farouq, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Al-Qahira, Misr. Al-Masrou' al-Qawmi lil-Tarjama.

Rene Guenon. (2013). Hayminat al-Kam wa Alamatu Akhir az-Zaman. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Rene Guenon. (2013). Ramuz al-Ilm al-Muqaddas. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Rene Guenon. (2016). Maratib al-Wujud al-Mutadad. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Rene Guenon. (2016). Sharq wa Gharb. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Rene Guenon. (2018). Al-Sultah al-Ruhiyah wal-Hukm al-Zamani. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Irbid, Al-Urdun. Alam al-Kutub al-Hadith.

Rene Guenon. (2019). Al-Metaphysiqua al-Sharqiyah. (Abd al-Baqi Miftah, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Al-Jaza'ir. Al-Maktabah al-Falsafiyah al-Sufiyah.

Rene Guenon. (2019). Azmat al-Alam al-Hadith. (Osama Shafei al-Sayyid, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Beirut, Lubnan. Markaz Namaa lil-Abhath al-Jami'iyah.

Shadi Fiqi. (2002). Al-Ru'ya al-Kawniyah min al-Madiyah ila al-'Irfan. Ta'1. Beirut, Lubnan. Markaz Dar al-Ilm lil-Dirasat.

Todorov Tzvetan. (2007). Rooh al-Anwar. (Hafez Qwaiea, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Beirut, Lubnan. Dar Muhammad Ali lil-Nashr.

Wael Hallaq. (2019). Qusur al-Istishraq. (Osman Omro, Al-Mutarjimoon). Ta'1. Beirut, Lubnan. Al-Shabakah al-Arabiyah lil-Abhath wal-Nashr.

Zeinab Abdel Aziz. (1996). Maqalat min Rene Guenon. Ta'1. Misr. Dar al-Ansar.

Ziyadat Ma'an. (1986). Al-Mawsu'at al-Falsafiyah al-Arabiyah lil-Istilah wal-Mafahim. Ta'1. Al-Qahira, Misr. Markaz al-Inmaa al-Qawmi.